مستقبل الجنس البشري

بقلم جوليان هكسلي

بين العلم وأخطار حرب ذرية ، وتهديدات ازدياد السكان ، كيف يستطيع الانسان ، وسط الف مشكله تجابهه، ان يبني مستقبله؟ هذا ما يجيب عليه العالم البريطاني الكبير جوليان هكسلي(1) في هذه المقاله التي نترجمها لقراء ((الاداب)) .

نعرف اليوم ان جميع مظاهر الواقع خاضعة للتطور ، الذرات والنجوم ، حتى الاسماك والزهور ، ومن الاسماك والزهور حتى المجتمعات والقيم الانسانية . وبالفعل ، فان الواقع كله هو نمو تطوري هائل ، وعصرنا هو العصر الاول الذي ينعم فيه الانسان بمعرفة كافية تمكنه من ان يميز خطوطه الكبرى .

لقد اكتشفنا ان ثمة تقدما بيولوجيا يظهر في مرور الحياة عبر سلسلة من المراحل ، يحتل كلا منها فريق من الحيوان والنبات يسجل تنظيمها تقدما بالنسبة لتنظيم الفرق السابقة .

ولا شك في ان تنظيما افضل سيمنح الكائنات ميزة بيولوجية . ولهذا اصبح الفريق الجديد سائدا ، يتضاعف ويتوزع في تكاثر للفروع . وهذا النجاح البيولوجي يتم غالبا على حساب الفريق القديم السائد ، ولكن يتفق ان تظل المرحلتان في تعايش ، حين يتيح نموذج التنظيم الجديد ان تغامر الكائنات في وسط يختلف كل الاختلاف عن الوسط الذي كان يعيش فيه الفريق القديم . فان تطور الفقاريات الارضية مثلا لم يهدد قط وجود الاسماك .

والفريق الجديد ، في مراحل تطوره الاولى ، هو دائما ضعيف وقليل العدد . وسيادته لا تقوم على الفور ، وانما تتم بسلسلة من التحسنات المتتابعه ينتهي الامر بها الى ان تذوب في تنظيم جديد ثابت . فقد عاشت ضرعيات صغيرة تافهة وتطورت خلال اكثر من مئة مليون سنة قبل ان يتحقق التنظيم الذي كان من شانه ان يؤمن لها توسعا انفجاريا .

وقد كان الامر كذلك بالنسبة للانتقال من الضرع الى التنظيم النفسي الاجتماعي . فان اجدادنا القرديين الذين سبقوا العهد البشري لم يكونوا كثيري العدد ، وكانت سلسلة من المراحل ضرورية لتحولهم الى بشر : الهبوط من الاشجار ، تبني وضع الوقوف ، نمو المخ ، تبني عادات أكل اللحم ، استعمال الادوات وصنعها ، نمو المخ مجددا ، خلق لغة للتعبير ، تبني الادوات والطقوس ، وقد استغرق عبور هذه المراحل المختلفة زهاء نصف مليون سنة ، ولم ينقض اكثر من مئة الف سنة على الوقت الذي استحق فيه الانسان لقب «النموذج السائد» . وهذه السيادة ليست كلية في الواقع الا منذ أقل من عشرة الاف عام .

وبعد ظهور انسان بشري حقا ، استمر تطوره ، ولكن باختلاف هام : فان هذا التطور لم يكن بعد بيولوجيا ، وانما اصبح نفسيا اجتماعيا ، متحققا بآلية التقليد الثقافي الذي يفترض التوالد الذاتي الجمعي والتحول الذاتي للنشاط الذهني ولمنتجاته . واذن ، فان المراحل الكبرى للتطور البشري موسومة بظهور طرائق جديدة سائدة للتنظيم الفكري ، للمعرفة ، للايمان ، للافكار ، وليست هي موسومة بتحقيق تنظيمات بيولوجيات جديدة .

ان كل نظام ايديولوجي جديد ينتشر ويسود قطاعا هاما من العالم ، الى تولد «دفعة» ثقافية نظاما فكريا جديدا يحل محل النظام السابق . وحسبنا ان نذكر النيئة

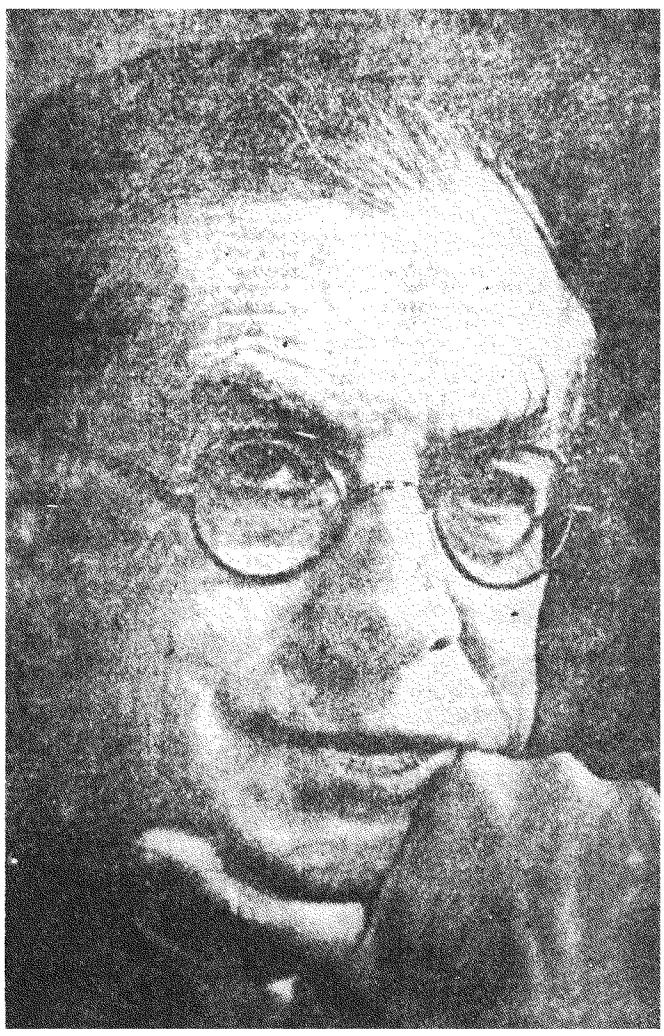

(1) القى جوليان هكسلي هذه المحاضرة في جامعة شيكاغو بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام على بيان داروين « في أصل الاجناس بطريق الاختيار الطبيعي » وقد حضر هذا الاحتفال الف ومئتا عالم قدموا من سبعة وعشرين بلدا .

السحرية للفكر القبلي ، والبنية التيوقراطية لمجتمع القرون الوسطى ، المتركزه على مبدأ السلطه والوحي الالهيين ، واخيرا ، ظهور بنية علمية ، خلال القرون الثلاثة الاخيرة ، منظمة حول فكرة التقدم البشري ، على كون هذا التقدم مراقبا من سلطة فوق الطبيعة . وفي عام ١٨٥٩ فتح دارون بابا لمرحله جديدة من التطور النفسي الاجتماعي ، هي مرحلة تنظيم الفكر والمعتقدات تنظيما مركزا على فكره التطور .

ويهتم كل تنظيم ايديولوجي سائد بغايات الوجود النهائية اهتمامه بمشكلات الوجود المباشرة . فهو يقدم تفسيرا ما للانسان ، وللعالم الذي يعيش فيه ، والمكان الذي يشغله فيه . وقد بدات ترتسم الخطوط الكبرى للنظام التطوري في عصرنا ، وفيه يبدو الانسان العامل الوحيد لتطور الكرة المقبل .. انه نقطة الذروة التي بلغتها مليارات ونصف المليار من سنوات تقدم بيولوجي بطيء مردود الى الانتهازية العمياء للاختيار الطبيعي . فاذا لم يهدم نفسه بنفسه ، فان امامه على الاقل فترة تطور مساويه لكي يمارس سيادته .

وفي المرحلة الاخيرة من التطور البيولوجي ، ظهر الفكر شيئا فشيئا بوضوح اكبر ، حتى اصبح يمثل دورا اهم في حياة الكائنات الشخصية ، وانتهى به الامر الى ان غدا قاعدة للتطور المقبل الذي اصبح ثقافيا ، وليس هو بعد وراثيا . والانسان مدين بمركزه السائد لهذا الانبثاق الفكري الذي لم ينتج عن جهد واع . وانما نتج عن السير الالي للاختيار الطبيعي . فهو انما اصبح العامل المسؤول عن تطور الكرة المقبل لانه وهب فكرا . وهو لن يتمكن من ممارسة هذه المسؤولية ممارسة صحيحة الا بان يستعمل استعمالا صحيحا موارده الفكرية من المعرفه والعقل والتخيل والحساسيه والضمير الخلقي .

وهو لا يستطيع ان يعتمد من اجل ذلك على اي عون خارجي . فليس ثمة من مكان بعد لما هو فوق الطبيعة في المخطط التطوري . ان الارض لم تخلق : وانما هي قد تطورت كما تطور النبات والحيوان . وكما تطورنا نحن انفسنا . ولهذا ، فليس في وسع الانسان ان يجد ملجا له من وحدته في ذراعي صورة ابوية مؤلهة . ولا ان يتخلى عن القرارات التي ينبغي ان يتخذها لسلطة الهية او لعناية ربانية غامضة .

ومن جهة اخرى ، فان وحدته ليست الا ظاهرية . انه ليس وحده في نوعه . فهو يعرف الان . بفضل علماء الفلك ، انه ليس الا واحدا من المركبات العضويه المتناثرة في الكون والتي تشهد بالتيار العالمي المتجه نحو حساسية الكائن وفكره وكليته . بل الاهم من ذلك انه يعرف ايضا منذ دارون انه ليس ظاهرة معزولة مقطوعة عن باقي الطبيعة . انه ليس فقط مصنوعا من المادة نفسها التي صنع بها باقي الكون ، ولا من الطاقة نفسها ، بل هو مشدود بديمومه وراثية الى جميع سكان كوكبه الاخرين . ان الحيوان والنبات والمركبات العضوية الصغيرة هي كلها اقارب له بعيدة ، مولودة من التيار الجبلي الكبير نفسه .

ثم ان الانسان ليس وحيدا كذلك ، كفرد مفكر . فهو يسبح في ذلك الاوقيانوس الممتنع على اللمس الذي عمده « تايلار دوشاردان » باسم « النووسفير » ، على نحو ما يعيش السمك في ماء البحار المادي . ففي هذا الاوقيانوس الكوني تعوم تحت تصرفه المضاربات الجريئة والمثل المحمسة التي كان يعتنقها رجال زالوا منذ وقت طويل ، ومعرفة العلم المنهجية ، وحكمه القدامى ، والخيال الخلاق لجميع شعراء العالم وفنانيه . وبوسعه ان يجد اخيرا في طبيعته بالذات امكانيات ضخمة لا تنتظر الا ان تستغل هي امكانيات الاندهاش والتعجب والمعرفة ، وامكانيات الفرح والاجلال ، وامكانيات الايمان الخلاق والادارة الخلقية ، وامكانيات العاطفه العميقة والحب .

وبالامكان مقاربه المرحلة الحالية للتطور البشري بتلك المرحله الجيولوجية ، منذ ثلاثمئة مليون عام ، التي اقام فيها جدودنا البرمائيون على شواطيء البحار اول راس جسر في وسط جديد كل الجدة . فهم اد عجزوا عن المضي في السباحه بدنبهم القوي ، كان لابد لهم ان يتعلموا الزحف باعضاء مرتبكة . واذا ظلوا ينجحون في البقاء على الارض الصلبه اثناء حياتهم كبالغين ، فقد كان لابد لهم من ان يقضوا في الماء القسم الاول من حياتهم .

وذلك هو شاننا نحن ايضا اذ لم نكد نعوم من عهد التطور . ولما لم نكن بعد مدعومين ومقودين بغرائزنا تاركين عبوديات « البيوسفير » الى حريه « النووسفير » ولا ننس ان هذا التحرر حديث جدا . فنحن لسنا حقا بشرا الا منذ اقل من مئه الف عام ـ وهي ثانيه في ساعة التطور . ولما لم نكن بعد مدعومين ومقودين بغرائزنا وحدها ، فاننا نحاول ان نستعمل فكرنا واهدافنا الواعية كاجهزة للتحرك النفسي الاجتماعي . ولم نكن قد احرزنا حتى الان نجاحا هزيلا ، مكتسبين كثيرا من الشر لقاء قليل من الخير . ان اقدامنا ماتزال تجرجر في الوحل البيولوجي حتى حين ننصب رؤوسنا في هواء الوعي . ولكن باستطاعتنا خلافا لاجدادنا البرمائيين ، ان نلمح شيئا من الارض الموعودة التي تنتظرنا . اننا نستطيع ذلك بفضل آلة الاكتشاف الجديدة هذه التي هي مخيلتنا العقلانية . صحيح انها ماتزال كالمراصد الاولى التي سبقت غاليليه ، آلة بدائية تعطينا صورا ضعيفة وغالبا مشوهة ، ولكنها كالمرصد قابلة لتحسينات هائلة وتستطيع ان تكشف لنا كثيرا من اسرار مصيرنا النووسفيري .

على اننا لسنا بحاجة لاي مرصد عقلي لنراقب المشهد الحالي للتطور البشري والمشكلات المريعة التي تطرح فيه . فحسبنا ـ وهذا كثير ـ ان نكف عن ان نكون نعاما فكريا ، وان نخرج رؤوسنا من رمل العمى الارادي . فاذا بلغنا ذلك ، فلن نلبث ان نرى ان المشكلات التي ترهقنا هي ذات وجهين ، وانها تمثل لنا ايضا كتحديات مقوية .

فما هي تلك الشياطين المسيخة التي تنتصب على درب التطور ؟ انها في رأيي : خطر حرب تتجاوز العلم ، حرب نووية كيميائية بيولوجية ، وخطر ازدياد السكان

طبعت على مطابع

دار الغد للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١

زيادة مفرطة ؟ واتساع الاغراء الشيوعي ، ولا سيما في القطاعات المحرومة من الامتيازات في الشعوب العالمية ؟ وعجزنا عن ادخال الصين ، التي تمثل زهاء ربع البشرية، في منظمة الامم المتحدة ، وقرض التنوع الثقافي في العالم، ونزعتنا الى الاهتمام بالوسائل اكثر من الاهتمام بالغايات ، وبالتكنيك والكمية اكثر من اهتمامنا بالخلق وبالنوعية ؟ واخيرا ثورة الامل التي يسببها اتساع الفجوة التي حفرت بين المتخمين والمعوزين ، بين الامم الغنية والامم الفقيرة .

ولقد حاولنا حتى الان ان نحل هذه المشكلات منفردة، واحيانا بلا اقتناع عميق . بل نحن نرفض احيانا ، كما هو الحال مثلا بصدد ازدياد السكان وقبول الصين الشيوعية في صف الدول الكبرى ، ان نعترف رسميا باهميتها العالمية .

والواقع ان القضية ليست قضية شياطين مسيخة منفصله يمكن ان تقهر بسلسلة من الاعمال المستقلة ، بالغا مابلغت من البطولة . فان هذه المشكلات جميعا هي عوارض وضعنا التطوري الجديد ، ولا يمكن ان تحل الا على ضوء تحقيق فكري وخلقي لنظام ايديولوجي جديد سائد .

وهذا النظام ينبغي ان ينمو في اطار منظورتنا التطوري الجديد . عليه ان يساعدنا على التفكير ، على اسس من التغير والنمو والتقدم ، بان نصرف انظارنا نحو المستقبل ، لا نحو الماضي ، وان نلتمس توكيداتنا اليقينية لا في السلطة والمعتقدات السابقة ، بل في الكتلة المتنامية للمعرفة العلمية . وخلافا لكثير من التيولوجيات ، فان نظام الفكر الجديد يقر خاصية التغير المرغوب فيها والتي لا مفر منها ، حتى ولو ادت الى الانفصام عن طرق فكرية قديمة . والفجوة التي تفصل اليوم العلم عن الدين لن تسد الا حين يقر الاول واقع الثاني وقيمته كعامل للتطور البشري ، والا حين يقر الثاني ان الاديان خاضعة ويجب ان تكون خاضعة لسير التطور .

وينبغي ان يكون منظورنا التطوري شاملا بمقدار مايكون عمل الانسان ناجعا حين يعمل كجماعة ، من غير ان يهدر طاقته في منازعات ايديولوجية . والعلم يقدم لنا مثلا اول عن هذه الوحدة : فان علماء العالم كله يعملون معا لجعله يتقدم ، وهذا سبب سرعه تقدمه . وعلينا ان نتجاوز القومية في جميع الميادين ، وان نتساءل دائما باديء ذي بدء كيف يمكن لهذه المهمة او تلك ان تنجز على صعيد تعاون دولي للسير على صعيد عمل منعزل .

ولكن الفرد لن يضحي به في هذه الرؤية الشاملة ، انه لن يصبح دولابا مغفلا في الالة الاجتماعية ، ولعبة للقوى اللاشخصية لا تملك الدفاع. فانما هو يسهم خير اسهام في تحقيق امكانيات التطور البشري اذ يعمل على تنمية شخصيته الذاتية ، واستغلال مواهبة الخاصة ، والمشاركه شخصيا بنشاط العصر الذي يعيش فيه .

والنوعية والتنوع هما المبدان اللذان ينبغي ان يسودا نظامنا الفكري الجديد ، مقابل مبداي الكميه والتماثل . فان التنوع الثقافي ، في العالم كله وداخل كل بلد بالذات ، هو بهار الحياة . على اننا نجده مهددا في الواقع بالانتاج الجمعي ، والنشر الجمعي ورسم المستويات الانقيادية ، وبجميع القوى التي تعمل على توحيد اشكال البشرية . وعلينا ان نكافح بضراوة ضد هذه القوى .

ومن اهم الميادين التي ينبغي للتنوع ان يشجع فيها، حقل التربية . فنحن نرى ان تنوع المواهب والامكانيات يحارب اليوم في كثير من النظم المدرسية ، بحجة المساواة الديموقراطية المزعومة . ففي هذه الحالة نجد الطلاب الاقل التماعا يجن جنونهم للسرعة التي يساقون بها ، بينما نجد الاكثر موهبة يعانون الضجر من كبت انطلاقتهم .

فعلى نظامنا الايديولوجي الجديد ان يطرح عنه اسطورة المساواة الديموقراطية . ان الكائنات البشرية « لا تولد » متساوية في المواهب والامكانيات ، بل ان تقدم البشرية معزو في اكبر جزء منه الى وجود عدم التساوي هذا . فينبغي ان يكون شعارنا « احرار ، ولكن غير متساوين » وينبغي ان تكون غاية التربية عندنا تنويع المواهب ، لا قسرها على « المستوى الطبيعي العادي . »

ويجب ان نعيد النظر كليا في عاداتنا الفكرية حين نواجه مشكلة ازدياد السكان . فان الانفجار التعدادي الذي شهده نصف القرن الاخير يمثل تمثيلا صارخا المبدا الماركسي في الصلة بين الكمية والنوعية . فان زيادة بسيطة لعدد الافراد تؤثر على نوعية حياتهم ، تاثيرا يكاد يكون دائما باتجاه الانحطاط .

ان زيادة السكان قد بدأت فهدمت قسما كبيرا من الموارد العالمية ، سواء في ميدان الغذاء ، او في ميدان سعادة البشر ، وهذا لا يقل اهمية عن ذاك ، بالرغم من اهماله غالبا . وفي بدء التاريخ البشري كان لشعار « انموا وتكاثروا » سبب وجيه . اما اليوم ، فقد اصبح مشؤوما ، واتباعه يؤدي بنا الى الكارثة . ان على العالم الغربي ان يباشر تعديلا شاقا لسياسته التعدادية ، عليه ان يفهم ان من واجبه ان يعمل على تخفيض نسبه النمو وفيما بعد تخفيض الرقم المطلق العالمي للسكان .

واعادة نظر مشابهة ضرورية في الميدان الاقتصادي. ان النظام الاقتصادي الغربي قائم اليوم على ملاحقة النفع بالتوسع المستمر للانتاج ، وبالتالي للاستهلاك . وكما قال احد علماء الاقتصاد ، فان ازدهار الاقتصاد الاميركي يقوم على امكانية حمل الناس على الاقتناع انهم يريدون مزيدا من الاستهلاك .

ولكن هذا الانفجار الاستهلاكي ، شانه في ذلك شأن الانفجار التعدادي ، لا يمكن ان يستمر الى ما لا نهاية . فعلينا قريبا جدا ان نستبدل نظاما قائما على زيادة مصطنعة للحاجات البشرية باقتصاد موجه نحو كفاية نوعية لحاجات الانسان الحقيقية ، حاجاته الروحية والفكرية ، مثل حاجاته المادية والجسدية .

فاذا كنا مقتنعين حقا بأن قدر الانسان هو ان يجعل

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

كتابان خطيران

عارنا في الجزائر — **لجان بول سارتر**

الجلادون — **لهنري اليغ**

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب

((تتمة)) مستقبل الجنس البشري

امرا ممكنا تفتيح الافراد تفتيحا اكبر واتاحة الانسجام بين المجتمعات البشريه على نحو افضل ، فان مبادىء الفائده المادية والنفع تصبح تافويه . صحيح ان انتاج نميه ما من الخيرات ضروري لاشباع الحاجات البشريه ، ولكن الى حد فقط . فان هناك لحظه تاتي يصبح فيها انتاج مزيد من الحراريات والكوكتيلات واجهزة التلفزيون والات الغسيل امرا مشؤوما ، وليس فقط لا مجديا . ان على انتاج الخيرات المادية الا يكون غاية في ذاته، بل وسيله في خدمه نميه.

والغايات الجوهريه للحياة البشريه هي عبادة الجمال والحفاظ عليه ، سواء اكان طبيعيا ام مولودا على يد الانسان ، وملاحقة السلام الداخلي والانسجام ، والمشاركه الناشطه في سير التطور . ان الامم والمجتمعات تحيا في خلد الرجال لا بسبب ثروتهم او بذخهم او براعتهم التكنيكيه ، وانما بسبب اثارهم الفنية وانتصاراتهم العلميه والحقوقية والفلسفيه والسياسيه ، ونجاحهم في تحرير الانسان من قيود الخوف والجهل .

وبالرغم من ان الانسان مدين للفكر بوضعه الحالي السائد ، فانه ما يزال يجهل عنه كل شيء تقريبا . ان اكتشاف الفكر لم يكد يبدا . وهو سيكون المهمه الرئيسيه للعهد الذي ينفتح امامنا ، كما كان اكتشاف الكرة مهمة العصور السابقة . ولا شك في ان هذا الاكتشاف البسيكولوجي يخبيء لنا مفاجات لا تقل عن مفاجات اكتشاف العالم ، ومن المؤكد انه سيمنح لاحفادنا امكانيات جديدة لا تحصى في الاغناء والانجاز .

واخيرا ، يتيح لنا المنظور التطوري ان نميز الخطوط الكبرى لما سوف يكون عليه دين الغد ، فكما ان المعدة هي الجهاز المكلف بالتمثيل وهي التي تشغل الحركه الكيميائيه لبعض السوائل ، فان الاديان هي الاجهزه النفسيه الاجتماعية المكلفة بمشكلات القدر ، وهي التي تشغل فكرة المقدس ومعنى الخير والشر .

ولا شك في ان شكلا ما من الدين هو ضروري . ولكن تطبيقات الدين ليست دائما شيئا صالحا . فليس صالحا ان يقتل هندوكي ابنه (كما حدث اخيرا) خلال حفلة تضحية دينية . وليس صالحا ان يستطيع الضغط الديني اعلان لاشرعية تدريس النظرية التطورية في مقاطعة « التنيسي » بسبب عدم تلاؤمها مع المعتقدات الاساسية. وليس صالحا ان تعاني نساء الكونكتيكوت والماساشوسيت من منع الكنيسة الكاثوليكية للاطباء بان يرشدوهن الى طرائق مراقبة الولادات . ولم يكن صالحا ان يعذب المسيحيون ، بل ان يحرقوا المهرطقين ، كما انه ليس صالحا ان تعذب الشيوعية ، بمظهرها العقائدي ـ الديني ، المنحرفين بل ان تعدمهم .

ان بوسع دين الغد ان يكون شيئا عظيما. انه سيؤمن بالمعرفة ، وبوسعه ان يفيد من المعرفة الهائلة المتجمعة من الانفجار الثقافي للقرون الاخيرة ، لكي يقيم بنية تيولوجية جديدة . وبوسعه ، حين يعتمد على معرفة أفضل الفكر ، ان يعرف تعريفا أوضح فكرتي الخير والشر ، وان يوجه حسنا للمقدس نحو امور أجدر وأخلق . وان يجعل حقيقته القصوى في تحقيق جميع الامكانيات البشرية .

ترجمة ((الاداب))

دار الاتحاد

تقدم

الكاتب الجزائري **كاتب ياسين**

في روايته

نجمة

نقلتها الى العربية **مالك ابيض العيسى**

راجع الترجمة **سليمان العيسى**

*

جان بول سارتر

في مسرحيته الرائعة

الشيطان والاله الطيب

نقلها الى العربية **غياث حجار**

*

وجها لوجه مع القومية العربية

للكاتب الفرنسي : **جاك بولان** ترجمة **غياث حجار**
اوفى بحث غربي عن القومية العربية

*

يصدر قريبا :

مصير افريقيا

للصحفية الفرنسية **ايف ويسار** ترجمة **غياث حجار**
دراسة عميقة عن تطور القارة السوداء

*

تطلب منشورات دار الاتحاد في البحرين من الشركة العربية للوكالات والتوزيع

دار الاتحاد ـ مطابع دار الصحافة ـ محطة الناصرة ـ بيروت